الفصـــل الثانـــي

المسار التاريخي للقرية

١. التسمية:

لم تُذكر زرعين في المصادر التاريخية القديمة وقد عّرفها معظم الباحثين على انها "يزراعيل" الواردة في مصادر العهد القديم، وحسب هذه المصادر فقد خيم فيها شاؤول * تجهيزاً للقائه الفلسطينيين في معركة جلبوع (١).

ولم تذكر المصادر بان زرعين كانت مدينة في ذلك الوقت، واكتسبت صفة مدينة في القرن التاسع قبل الميلاد حيث اصبحت العاصمة الشتوية لمملكة العبرانيين الشمالية، حيث كانت مدينة مسورة بُني فيها قصر (٢)، وقد تم تدمير زرعين من قبل الاشوريين وبالتالي قلت اهميتها كموقع استراتيجي، وكما هو الحال مع معظم الروايات التاريخية، تبقى هذه الرواية موضع سؤال كبير بحاجة الى دلائل اثرية واضحة، حيث لم يجد المنقبون اي اثار للقصر. هناك بعض الدلائل الكتابية على الجرار الفخارية التي تشير الى نوع من علاقة التبادل مع الاشوريين.

وكذلك فهناك دلائل على اعادة الاستيطان في زرعين خلال الفترات الهلنستية والرومانية، حيث اصبحت تدعى اسداراليون **Esdraelea** وهو الترجمة اليونانية لجيزريل، ويفترض أن اسمها العربي اشتق من هذه التسميات. وذكرت المصادر العربية في العصور الوسطى زرعين باسمها الحاليّ. وأول ذكر للقرية باسم زرعين، جاء

---

* شاؤول هو اول ملك لمملكة العبرانيين التي اسست حوالي ١٠٢٠ ق.م. قتل هذا الملك على يد الفلسطينيين في معركة جلبوع، ثم اختار اليهود داوود ملكاً عليهم (١٠١٠ - ٩٦٣ ق.م) وبدأ حكمه معاصراً للوجود الفلسطيني، واما معركة جلبوع، فقد وقعت بين الفلسطينيين والعبرانيين وسميت بجلبوع نسبة الى جبل جلبوع (فقوعة حالياً).
المصدر: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الاول، القسم الثاني، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٧٥.

على لسان ياقوت الحموي، ولمزيد من التفاصيل انظر ص ١٣. وقد وردت بالدفتر دار العثماني في القرن السادس عشر باسم زرعون، حيث كانت قرية صغيرة بلغ عدد سكانها حوالي ١١٠ نسمة، وقد تبعت القرية ناحية جنين (٣).

ويقول التاجر اللندني جون ساندرسن، بعد ان قام برحلة في بداية القرن السابع عشر للميلاد، انه زار قرى عديدة في فلسطين وكان من بينها زرعين وذكر ان اسمها في ذلك الوقت هو "زرني" (٤).

٢. التاريخ الحضاري حسب الدلائل الاثرية:

لقد جرت العديد من المسوحات في منطقة زرعين وتعود اغلبها الى القرن الماضي حيث ذكرها العديد من الرحالة والمستكشفين وتنحصر في مسح غربي فلسطين. قامت دائرة الاثار في حكومة الانتداب بمسح المنطقة ووجدت فيها بقايا لبناء مقبب من العصور الوسطى وكنيسة، اساسات بناء، ابار، معصرة للنبيذ وكهوف (٥).

لقد تم تدمير جزء كبير من اثار زرعين اثناء اعمال الحفريات لبناء متحف كبيوتس هالوتزيم وخصوصا من الناحية الشرقية، وقامت دائرة الاثار الاسرائيلية بالقيام بحفريات انقاذ في الموقع بين السنوات ١٩٨٧ و ١٩٨٩، وفي الوقت الحالي تجري حفريات الاثار كمشروع مشترك بين جامعة تل ابيب والمدرسة البريطانية للاثار في القدس.

دلت الحفريات الاثرية في الموقع على وجود مستعمرة من العصر الحديدي وهو اقدم استيطان في المنطقة، وقد وجدت بقايا معمارية وفخارية تعود الى الفترات الرومانية والبيزنطية والمملوكية والعثمانية (٦). ويعود الى العصر الحديدي وجود اثار لخندق مائي بعرض ٩-١١م، وكان جانبها مقطوعاً في الصخر، والسور المائل (glacis) هو عبارة عن طمم من تراب يوضع بشكل مائل بمحاذاة سور المدينة بغرض دعم السور ومنع العربات من الاقتراب، وقد بُني السور المائل في زرعين من تربة حمراء مغطاة من الخارج بطبقة من الحجارة الكلسية المطحونة بسمك حوالي ٢٥سم، وينحدر السور المائل بزاوية ٢٢ درجة، وارتفاعه حوالي ٣ امتار وعرضه ٥ر٧م.

وتم اكتشاف اربع غرف مبنية على الطراز الفينيقي، وكانت جدرانها مبنية من الطوب، واكتشفت كذلك بناية مع عدة غرف، مساحة كل غرفة حوالي ٥ر٢ × ٤م كما وجدت بقايا قبر مقطوع في الصخر على الطرف الجنوبي الشرقي للموقع، وبقايا لحاجز في الشمال الشرقي مع بعض الحجارة التي كانت لا تزال في موقعها.

وتم الكشف عن ثلاثة ابار رئيسية حول الموقع، وقد دلت بقايا الفخار على ان الابار بقيت تستعمل حتى الفترة البيزنطية، ومع احد الابار كان هناك حوض وثلاثة مواسير فخارية تعود لفترات متعددة، وحوض لتجميع الماء واحضارها الى البئر والحوض يعود للفترة البيزنطية، والبئر الاخر هو في مرحلة الحفر وهو يعود للفترة الرومانية، ودمر جزء من البئر الثالث اثناء هزة ارضية حيث بنى فوق هذا التدمير طابون يعود الى الفترة المملوكية، وقد دلت بقايا الفخار على ان اخر مرحلة استعمال للبئر كانت خلال الفترة البيزنطية رغم وجود اشكال فخارية تعود الى الفترة الرومانية، ومن العهد الروماني ايضا تم الكشف عن قبرين محفورين في الصخر.

وتم الكشف عن العديد من المنشآت الزراعية التي تعود الى الفترة البيزنطية مثل الاحواض والبرك والقنوات والسلاسل وعلى القرب من الموقع وجدت معاصر للنبيذ او الزيت محفورة في الصخر مع احواض وبرك للتجميع والتجفيف.

من الملاحظ ان الحفريات الاثرية لم تكشف عن مستوطنة كبيرة في زرعين كما هو الحال مع المدن المحصنة في فلسطين، بل ان الدلائل الاثرية تشير الى وجود قرية زراعية نشيطة في الفترة البيزنطية، وقد تحصن اهل القرية خلف السلاسل التي تم بناؤها لحماية التربة من الانهيار، ناهيك عن وجود مرج بن عامر الى الجنوب الغربي وسهل زرعين الى الشمال والشرق كاخصب اراضي فلسطين (٧).

٣. التاريخ الشعبي والرسمي:

يعتقد ابناء القرية ان "زرعين" قديمة جداً، ويروي ابناؤها نقلا عن ابائهم واجدادهم ان زيتون القرية زرعه الرومان، الذين في عهدهم شقت الطرق الساحلية والجبلية، وكان من اهمها: الطرق الجبلية، وتبتديء من دمشق - بيسان (اما عن طريق طبرية او عن طريق جسر المجامع، ثم الى زرعين - جنين - قباطية - سبسطية -

نابلس - حوارة - القدس - بيت لحم - الخليل - بئر السبع - الحفير - سيناء ومصر. وكانت قرية زرعين احدى قرى مناطق اللجون في العهد الروماني (٨).

أحرقت قرية زرعين في عام (٥٨٠هـ، ١١٨٥م) من قبل السلطان صلاح الدين الايوبي، بعدما اغار جنده على مدينة جنين واقتحموا قلاعها الواقعة تحت سيطرة الافرنج، وقتل تحتها عدد من الناقبين، واستولوا عليها وغنموا الشيء الكثير ورحلوا عنها في ليلتهم الى زرعين وعين جالوت واحرقوهما (٩).

وفي رواية اخرى يذكرها احمد سامح الخالدي في كتابه اهل العلم والحكم في ريف فلسطين نقلا عن ياقوت الحموي، ص ٤٠٧): "ان الفولة وهي بلدة فلسطينية من نواحي الشام كانت من احسن الحصون، وفيها من العدد والاموال شيء كثير وكانت مجمع الافرنج، ولما كان يوم المصاف، خرجوا باجمعهم وحصل لهم ما حصل من القتل والحصر والاسر ولم يبق فيها الا الارائل، فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان صلاح الدين، وتسلموا جميع ما بتلك الناحية مثل دبورية وجنين وزرعين والطوالية واللجون وبيسان والقيمون، وجميع ما بطبرية وعكا من الولايات والزيب ومعليا والبعنة واسكندرية وذلك عام (٥٨٣هـ، ١١٨٨م)" (١٠).

وفي عهد المماليك كانت جنين وزرعين في عام (٦٥٢هـ، ١٢٥٤م) من اقطاعات الظاهر بيبرس، اقطعه اياها الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بناء على طلبه (١١). ويذكر ايضا ان قرية زرعين كانت في عهد المماليك محطة من محطات البريد، بعد محطة جنين، حيث ينقل البريد من فحمة - جنين - زرعين - عين جالوت ثم بيسان والمجامع فشرق الاردن ثم الكسوة ومنها الى دمشق، وذكر ايضا ان الظاهر بيبرس اصلح قرية زرعين كما اصلح الكثير من المدن الساحلية (١٢).

ولعل اهم معركة شهدها مرج بن عامر في العصور الوسطى معركة عين جالوت سنة (٦٥٩هـ، ١٢٥٩م) ذلك ان هولاكو بعد ان احتل بغداد ودمرها سنة (٦٥٦هـ، ١٢٥٨م)، ارسل جيشاً مغولياً كبيراً الى بلاد الشام، فاحتل شمالها واواسطها، ولكنه التقى في عين جالوت الواقعة على الطريق بين زرعين وبيسان عند المنفذ المؤدي من مرج بن عامر الى الغور بالجيش المملوكي بقيادة قطز، وكان القائد العسكر البارز في هذا الجيش الظاهر بيبرس (١٣). وكانت معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ لانها انقذت المشرق الاسلامي كله، وكانت اول هزيمة للمغول.

تنتمي قرية زرعين الى مجموعة بلاد حارثة وهذه البلاد تشتمل على ثلاثين قرية وهي: اللجون وام الفحم ومصمص ومشيرفة ومعاوية والطيبة وعانين وعرقة والمنسي وزلفة ورمانة وتعنك وسيلة الحارثية وزبورية وكفر دان واليامون وعرانة وجلمة ومقيبلة وصندلة (وزرعين) ونورس والمزار وعربونة ودير غزالة وبيت قاد ودير ابو ضعيف وجلقموس وجلبون وفقوعة. وبلاد حارثة دعيت بذلك نسبة الى القبيلة العربية "حارثة" التي نزلت هذه الديار في العصور السابقة وهي تُنسب الى قبيلة طيّء من العرب القحطانية، وقد ظهر فيها الامراء الحارثيون الذي حكموا هذه الديار وكانت جنين مركزاً لزعامتهم من (١٦٠١م الى ١٧٠١م) (١٤).

وفي عهد الاتراك العثمانيين في العصور الحديثة مرّ جيش نابليون (١٧٩٩م) بمرج بن عامر وقاتل جيشاً عثمانياً على مقربة من جبل طابور. "امر نابليون قائده "كليبر" في ١٥ نيسان عام ١٧٩٩م بمهاجمة الجيش العثماني فسار عن طريق قرية الطيرة وعين ماهل باتجاه دبورية عند جبل طابور. وفي القتال الذي جرى بين الطرفين في ١٦ نيسان، كاد كليبر ان يهزم لولا وصول نابليون الذي غادر صفورية صباح ذلك اليوم واجتاز مرتفعات المجدل، ثم نزل مرج بن عامر حيث الموقعة عند قرية الفولة. وجرت معركة الفولة (التي تبعد عن زرعين مسافة ٥كم) او بما يعرف بمعركة جبل طابور يوم ١٧ نيسان. وقد احرق الفرنسيون بعض القرى مثل الفولة ونورس وجنين" (١٥).

ولما هاجم جيش محمد علي باشا بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم باشا، سلكت بعض فرق الجيش البري طريق مرج بن عامر ومرت على قرى المرج مثل زرعين وغيرها وتابعت طريقها الى عكا عام ١٨٣١م (١٦).

في عام ١٨٥٦م يصف الرحالة روبنسون قرية زرعين: "في وقتنا الحاضر تضم قرية زرعين اكثر من عشرين منزلا، ولكن معظمها في وضع منهار وخراب، ويشتمل المكان على عدد محدود من السكان. ان العلامة المميزة لاثار القرية هو فسيفساء يتخلله رسومات واعمال مزخرفة، تلك التي تقع على الشمال من مدخل القرية، وهناك رحالة اخرون تحدثوا عن وجود زخارف واعمال فنية في مواقع اخرى من القرية. ويوجد برج مربع على طول معين بعضه في حالة خراب، ومن نوافذه استمتعنا بمناظر البلد في جميع الاتجاهات. العديد من السكان التف حولنا، وحينذاك لم نجد صعوبة في

معرفة اسماء الاماكن القريبة من ابصارنا والتي كان بعضها اسماءً مألوفة لدينا، قرية المزار، ما زالت بمنظرها في اعلى قمتها، واسفلها في المنحدر الشمالي للجبل تقع قرية اخرى تعرف باسم نوّرس. اما تل بيسان والذي يعتبر الاكربوبولس لذلك المكان فقد كان منظره مميزاً وواضحاً في اسفل الوادي. لقد علمنا من رحالة قدموا مثلنا الى المنطقة وهما يوسيفيوس وجيروم بان يزراعيل تقع على سهل يمتد بين اللجون - ليجبيوانفا وسكاينوبولس والتي تعرف الان باسم بيسان، والمكان الروماني المقدس المعروف باسم بوردو الموجود على بعد ١٢ ميل روماني من بيسان. ان العرب في قرية زرعين، والذين كانوا في تقديرهم للمسافات بالوقت لم تكن ابداً دقيقة. قدروا المسافة بين اللجون وبيسان بمسافة زمنية قدرها ثلاث ساعات ونصف الساعة. ان المكانين كانا على مقربة من النظر وبدا على مسافة شبه متساوية من قرية زرعين" (١٧).

يروي بعض ابناء القرية الذين قابلتهم ان الاجداد الاوائل لسكان القرية قدموا من مصر ابان حملة ابراهيم باشا، وتقول احدى الروايات:

> "ان احد عساكر ابراهيم باشا رفض العودة الى مصر عام ١٨٤٠، عندما انسحب المصريون وفضل الاقامة في القرية وذاك الرجل تزوج وانجب اطفالاً وهكذا نشأت القرية وتوسعت وكثر عدد سكانها" (١٨).

وفي رواية اخرى، ان:

> "ست عائلات مصرية قدمت ابان حملة ابراهيم باشا وارتأت السكن في "زرعين" لخصوبة اراضها ومناخها الجيد وغزارة مياهها" (١٩).

الا ان هناك تضارباً في هذه الروايات وخصوصاً فيما يتعلق بالعائلات الاولى التي سكنت القرية وعدد هذه العائلات، غير ان هناك اجماعاً على اسماء العائلات، المصرية وهي الشلبي، العموري، الحاج ابراهيم، مطاحن، ابو عطية والتي تعتبر من العائلات الكبيرة. بالاضافة الى ذلك وفدت عائلات اقل عدداً وهي عائلات: فايد، الاسمر، القرم، جبر. وجزءاً من هذه العائلات وفقاً للروايات التي جمعتها، سكنت في قرية الفولة.

وهجرة المصريين الى قرى فلسطين كان جزءاً من ظاهرة عامة، حيث هاجر الى فلسطين اعداد كبيرة من المصريين قبل حملة ابراهيم باشا. ويتفق المؤرخون على ان احد الاسباب التي دفعت حاكم مصر محمد علي لاحتلال سوريا التي تشمل فلسطين ولبنان، لان والي عكا "عبدالله باشا" رفض اعادة ستة الاف فلاح مصري فرّوا من بلادهم الى فلسطين بعد ان عانوا كثيراً من ظلم محمد علي في الجندية وتحملوا اعباء الضرائب وتعرّضوا للسخرة (٢٠). ومن هنا، فليس غريبا ان يبقى بعض عساكر ابراهيم باشا في فلسطين بعد انتهاء الحملة وخصوصاً في ظل الصعوبات التي واجهها ابراهيم باشا على يد التحالف الاوروبي - العثماني ضده.

ويضيف احد ابناء القرية:

"كانت حكومة تركيا تفرض التجنيد الاجباري على كل من يبلغ السادسة عشرة من العمر، ومن هنا ذهب الكثير من الناس للاشتراك في حروب تركيا، ومن يريد ان ينقذ ابنه من موت شبه محقق كان عليه ان يدفع ثمناً لحياته، وكان الثمن ٥٠ رشادي، والرشادي عملة تركية. وقد اضطر العديد من اهالي القرية الى بيع اراضيهم للحصول على المال، وكانت عائلة عبدالهادي * تقوم بشراء الاراضي حيث كانت هذه العائلة من اثرى العائلات واكثرها نفوذاً، وتقريراً للحقيقة فقد كنا نحن سكان القرية نلجأ الى تلك العائلة ونطلب منها شراء الاراضي ليتوفر لنا المال المطلوب لانقاذ اولادنا. ومن الحمائل التي باعت اراضيها: مطاحن، والحاج ابراهيم، اما حمائل ابو عطية والعموري والشلبي فاحتفظوا باراضيهم" (٢١).

---

* " حتى تاريخ الاحتلال المصري لفلسطين الذي حدث في عام ١٨٣١ استمرت السياسة العثمانية تعمل من خلال سليمان باشا (١٨٠٥-١٨١٩) وعبدالله باشا (١٨١٩-١٨٣١) وقد تعاقبا على السلطة بعد احمد باشا الجزار. والمؤشر البارز على الاهتمام كان نقل مركز الولاية من صيدا الى عكا، وكانت عكا قد ظلت مقراً للولاية من عام ١٧٧٥-١٧٧٦ حتى عام ١٨٣٢، اي حتى قدوم الجيش المصري، وبمساعدة هذين الحاكمين القويين بدأ العثمانيون في تعيين اشخاص موثوقين في المراكز الادارية العليا في السناجق، اما من اسطنبول مباشرة او من بعض العائلات المحلية الحديثة النفوذ التي تمنحهم ولاءها للحفاظ على مراكزها، وهكذا عمد عبدالله باشا والي عكا الى تعيين حكام القدس وجنين من مماليكه الخاصة، في حين تم تقوية عائلتي عبدالهادي والقاسم الحديثتي البروز في منطقة نابلس لزيادة ثرواتهما وبالتالي التغلب على العائلات القديمة المنافسة لهما وذلك باعطائهما حق جمع الضرائب من السكان". (الموسوعة الفلسطينية: القسم الثاني، روجر اوين "التحول في الاقتصاد الفلسطيني" ١٨٠٠-١٩١٤، ص ٥٥٩).